جامعة الأنبار
كلية الآداب
قسم التاريخ /الدراسات الأولية
المرحلة:الثالثة
تدريسي المادة :أ.د.عبد الستار مطلك درويش
أ.د.إيمان محمود العبيدي

## المحاضرة التاسعة

أدب الرحلات: هو ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلةٍ قام بها إلى أحد البلدان. مفهوم الرحلة واستمرارها:

الرحلة مشتقة من الارتحال وهي تعني الانتقال من مكان لآخر؛ لتحقيق هدف معين، ماديا كان ذلك الهدف أو معنويا.

والرحلة متصلة بتاريخ الإنسان منذ أقدم العصور. فأول رحلة قام بها الإنسان هي رحلة من بساتين الجنة إلي سطح الأرض. و إليه أشار قوله تعالي: قلنا اهبطوا منها جميعا.

أغراض الرحلة

تتعدد الدوافع التي تحمس الإنسان للرحلات، وتختلف من شخص إلى آخر، ومن قوم لقوم، ومن عهد لعهد، إلا أنها في الأغلب لا تخرج عن أن تكون:

١ـ دوافع دينية:

وهذا القسم يتعدد بتعدد أنواعه:

أ- الهجرة: الخروج من دارالحرب إلى دارالإسلام، لما نهي عن العمل بالشريعة، وعن القيام بالشعائر.

ب – أداء فريضة الحج: وهي فرض بالنسبة لحجة العمر لمن استطاع إليه سبيلا.

ج- الرحلة للجهاد أو الرباط في سبيل الله.

د- الرحلة بقصد العبرة والاتعاظ. (قل سيروا في الأرض فانظروا، كيف كان عاقبة المكذبين)

هـ- تبليغ الدعوة إلى أقطارالعالم.

٢ـ دوافع علمية أو تعليمية:

بغرض الاستزادةمن العلم في منطقة أخرى من العالم، ذاع صيت أبنائها في مجالات العلوم كالحديث والفقه والطب والهندسة وغيرها.

ومن قبيل ذلك أيضا رحلات البحوث العلمية والكشوف الجغرافية.

٣ـ دوافع سياسية:

كالوفود والسفارات التي يبعث بها الحكام إلى حكام الدول الأخرى؛ لتوطيد العلاقات، ولتبادل الرأي.

٤ـ دوافع حربية:

وكانت لا تهدف غالبا إلاَّ إلى التوسُّع في الأرض على حساب الأمم الضعيفة؛ بغرض استغلال مواردها، وفرْض سيادتها والسيطرة عليها.

٥ـ دوافع سياحية و ثقافية:

تصدر عن رغبة في الطواف نفسه والسفر لذاته، وحب التنقل وتغيير الأجواء، ومعرفة الجديد من خلق الطبيعة والبشر، وقد تكون لمعرفة المعالم الشهيرة كالآثار والمنارات وغيرها.

٦- دوافع اقتصادية:

للتجارة وتبادل السلع،أو لفتح أسواق جديدة لمنتجات محلية، أو لجلب سلع تتوافر في بلاد أخرى، وتندر في بلد المسافر.

وقد يكون هربا من الغلاء، وسعيا وراء الرخص.

وقد يكون للعمل.

٧- دوافع صحية:

كالسفر للعلاج أوالاستشفاء،أو إراحة النفس من ألوان العناء وتخليصها من الكدر كالارتحال إلى المناطق الريفية ونحوها.

وقد يكون هربا من الوباء والطاعون والتلوث.

٨- أغراض أخرى:

كالسخط على الأحوال، أو الهروب من العقوبة.

مفهوم أدب الرحلات:

إن هذا الفن من فنون الأدب العربي لم يظهر تحت مسمى أدب الرحلات، وإنما كان يظهر أحيانا تحت خانة «كتب التاريخ أو الجغرافيا أو السيرة الذاتية أو كتب الاعتراف أو أدب الاعتراف».. وهكذا فإن هذه التسمية «أدب الرحلات» تسمية وليدة هذا العصر وما شهده من دراسات ومصطلحات وتقسيمات لفنون وألوان المعرفة الأدبية.

وعلى رغم هذا فإن المشكلة فيما يطلق عليه أدب الرحلات لاتزال قائمة من حيث عدم وجود تعريف دقيق لهذا الفن يؤطر حدوده.

أنسب التعاريف ما يلي:

هو نوع من الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلةٍ قام بها إلى أحد البلدان.

أويملي أو يحدث مشاهداته ومشاعره تجاه ما سمع وما رأى، ويسطر ذلك شخص آخر.

موضوع أدب الرحلة:

كل ما يراه المغترب الرحال ويعايشه ويقرأه عن ملامح بلد أجنبى بعادات، وتقاليد سكانه، وخلفيته السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وأحداث يعايشها الأديب ومواقف تأثر بها، وهموم عانى منها في ذلك البلد الأجنبي، طالت أم قصرت مدة إقامته فيها، ومشاعر تختلج فى نفس المغترب تجاه الأمور السابقة، و كذلك جغرافيا ذلك البلد.

أسباب نشأة أدب الرحلة:

سبق أن أناسا في كل عصر ومصر في رحلات دائبة،ولم تتوقف الرحلة منذ أقدم العصور: وبعضهم كان يدوِّن رحلته، ويسجلها قصة باقية عبر العصور.

فمن أسباب نشأة أدب الرحلة وتدوين الرحلات:

١- أن يطلب الحاكم من الرحالة تدوين الرحلة.

٢- أو يطلب الأصدقاء ذلك.

٣- وقد تكون رغبة الرحالة أنفسهم في إفادة القراء وتثقيفهم بالجديد، وتعريفهم بتاريخ البلدان وحضارتها وشعوبها، وأبرز معالمها وعجائبها وعاداتها وتقاليدها.

٤- ومن الأسباب أيضاً أن يهتدي المسافرون بهذه الرحلة المدونة فتكون دليلاً لهم.

٥- وكذلك لإبراز مناسك الحج والعمرة، وإعانة المسلمين على معرفة الديار المقدسة وكيفية الوصول إليها والتجول فيها.

وقد ذهب الرحالة المسلمون إلى أماكن كثيرة لأسباب شتى، وبعضهم كان يدوِّن رحلته، ويسجلها قصة باقية عبر العصور. فمن أسباب تدوين الرحلات أن يطلب الحاكم من الرحالة تدوين الرحلة، أو يطلب الأصدقاء ذلك، وقد تكون رغبة الرحالة أنفسهم في إفادة القراء وتثقيفهم بالجديد، ومن الأسباب أيضاً أن يهتدي المسافرون بهذه الرحلة المدونة فتكون دليلاً لهم، وكذلك لإبراز مناسك الحج والعمرة، وإعانة المسلمين على معرفة الديار المقدسة وكيفية الوصول إليها والتجول فيها، وللتأريخ للبلدان وحضارتها وشعوبها، وللتعريف بالبلدان الغريبة وأبرز معالمها وعجائبها وعاداتها وتقاليدها.

دوّن الرحالة في مذكراتهم أخباراً ومشاهد وأوصافاً وتعليقات وملاحظات موجزة، ثم عمدوا إلى تهذيبها وصوغها بأسلوب جميل، إما في أوقات الراحة في أثناء السفر، وإما بعد الرجوع من السفر. ويشرع الرحالة المغامر أحياناً في سرد حكاياته وقصصه ومغامراته على الكاتب الذي يصوغها بأسلوبه الجميل، وقد اعتمد الرحَّالة العربي على النظر فيما يكتبه ويرويه، كما اعتمد على السمع، وعلى قراءة ومطالعة الكتب والأخبار.

ومن الصفات الحميدة التي اتصف بها الرحالة المسلم: الصدق والأمانة في الأخبار التي يرويها، وفي وصفه للمناظر والمشاهدات والحوادث، ومنها الذكاء وسعة الأفق وعمق التفكير، وإعمال التأمل، والموضوعية وعدم التحيز، وحبُّ البحث والتمحيص والنقد والتحليل.

***نظرة الإسلام إلى الرحلات :***

ينظر الإسلام إلى نشاط الرحلات والدعوة إليها نظرة تحفيز وتشجيع وتنشيط ، ويذكر صلاح الدين الشامى صاحب كتاب (الرحلة عين الجغرافيا المبصرة) أنه : لأن الإسلام دين حضارى متنور ، ودولة متفتحة ، ولأن التحضر أو التفتح يكفل التقدم ويؤمن حركة الحياة ويدعمها ويبشر بحياة أفضل ، فلقد أمسك المسلمون بزمام الرحلة وتحمسوا لها ، بل والتهب نشاط الرحلة الإسلامية فى إطار اهتمام رشيد مطمئن وتحولات تبشر بحياة أفضل وحصاد وفير .

وهكذا نالت الرحلة الإسلامية حقها الكامل من الاهتمام والأمان من ناحية ، واستحقاقها الفعال من قوة الدفع والحوافز على الطريق فى البر والبحر من ناحية أخرى ، ووصل نفر نشيط من المسلمين أصحاب الخبرة فى الرحلة أداء دورهم الوظيفى والخروج فى الرحلة لإنجاز المهام (المهارات) المنوطة بهم فى كل رحلة فى البر وفى البحر على حد سواء (٢) .

ويقول احد شيوخ الأزهر السابقين ، محمد الخضر حسين – التونسى الأصل – إن الإسلام لم يدع وسيلة من وسائل الرقى إلا نبه عليها ، وندب إلى العمل بها ، وهكذا شأنه فى الرحلة ، فقد دعا إليها رامياً إلى أغراض سامية منها : طلب العلم والتفقه فى الدين ، والمعرفة بأحوال الأمم الحاضرة (٣) .

وفى أسترشادة لأهمية الرحلة ، ودعوة الإسلام إليها بدأ الرحالة محمد السنوسى كتابه (الرحلة الحجازية) بما سماه (نموذج السفر) ، وأورد فيه من الآيات القرآنية الكريمة ما ينبه إلى فضيلة السفر والدعوة إليه . كتب يقول : لا يخفى أن الله جلت حكمته لم يجمع منافع الدنيا فى أرض واحدة ، بل فرق المنافع والجهات أحوج بعضها إلى بعض ، ولذلك كانت الأسفار مما تزيدنا علماً بقدرة الله وحكمته وتدعونا إلى شكر نعمته ، والمسافر يجمع العجائب ويكسب التجارب ويجلب المكاسب . وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تنبه على فضيلة السفر وتدعو إليها

، قال تعالى : {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } (٤) وقال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} (٥) وقال تعالى {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} (٦) وقال تعالى {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٧) وقال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } (٨) وقال تعالى {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (٩) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة (١٠) .

وقد عرفت البيئة العربية السفر ومارست الترحال فى شبه الجزيرة العربية والبلدان المتأخمة ، وقاموا برحلتى الشتاء إلى بلاد الشام والصيف إلى بلاد اليمن ، واللتين ورد ذكرهما فى القرآن الكريم ، وأبحرت سفنهم قبيل مجيئ الإسلام فى مياه المحيط الهندى ، حيث اتجهوا شرقاً نحو المحيط الهندى وغرباً إلى جنوب إفريقيا ، كما أن رحلات العرب فى الجاهلية أدت إلى أن يعرفوا الطرق البحرية فى مناطق متعددة ، كما أنها نمت إلى ما نسميه اليوم بالتبادل التجارى للسلع ، وأدت إلى ظهور طبقة من الرأسماليين الذين كانوا ينمون أموالهم بهذه الرحلات (١١) .

وتجدر الإشارة إلى أن الرحلات التكليفية كانت قد بدأت فى عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) ، إلا أنها كانت محدودة كرحلة تميم الدارى – وهو صحابى ولاه النبى (ص) أرضاً قرب الخليل ، ورحلة عبادة بن الصامت التى قام بها بتكليف من أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) – قاصداً ملك الروم يدعوه للإسلام . ولم يترك أثراً لهاتين الرحلتين سوى بعض الأخبار عنهما فى كتب الأدب والتاريخ (١٢) .

## *أسباب ازدهار الرحلة فى الإسلام :*

ازدهرت الرحلة فى الإسلام بصورة واسعة وذلك للأسباب الآتية :
١ـ المساحة الشاسعة للدولة الإسلامية وعدم القدرة على تحقيق وحدة سياسة واحدة ، كما كان فى القرن الأول من الهجرة النبوية ، إذ فقدت الإمبراطورية الإسلامية وحدتها السياسية فى منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ولكن روابط الدين واللغة والثقافة ظلت تجمع بين سكان الدولة الإسلامية ، فكانوا يشعرون بأنهم أبناء إمبراطورية إسلامية بعيدة الأطراف ، وقد كانت تلك الروابط قوية فى العصور الوسطى ، ولم تكن القوميات الإقليمية قد عظم شأنها بعد ، وكانت أنحاء هذا الملك الواسع الذى أسسه المسلمون تتطلب الدراسة والوصف ، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة ، وتسهيلاً لمهمة الولاة فسافر القوم لدراسة البلاد وطرقها وحاصلاتها وخراجها وما إلى ذلك ، مما لابد منه للتأليف فى علم تقويم البلدان ، وطبيعياً أن تكون الرحلات والأسفار من أول السبل لطلب العلم فى تلك العصور فقد كانت الكتب نادرة ، وكانت الدراسة العلمية تقوم مقام ما نصنعه اليوم من تتبع المراجع والمؤلفات التى تزدحم بها خزانات الكتب الخاصة والعامة . وفضلاً عن ذلك فقد تعددت مراكز الثقافة فى ديار المسلمين وكان رجال العلم يتناقلون فى طلبه من إقليم إلى آخر ، يدرسون على مشاهير الأساتذة ، ويلقون أعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين ، والأطباء والفلاسفة والرياضيين (١٣) .
وتأكيداً لدور الرحلة فى التراث الجغرافى للعرب والمسلمين . يؤكد عبد الله محمد احمد

المقدسى ، أحد أقطاب التراث الجغرافى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أهمية رحلاته فى أنحاء العالم الإسلامى من أجل المعاينة ، وجمع المادة العلمية التى سجلها فى كتابه الشهير (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) فيقول فى مقدمة كتابه : نحن لم نبق إقليماً إلا وقد دخلناه وأقل سبب إلا وقد عرفناه ، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب ، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه ، والثانى ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب وغيره . وما بقيت خزانة تلك إلا وقد لزمتها ، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ، ولا أهل زهد إلا وقد خالطهم ولا مذكرو بلد وقد شهدتهم حتى لى ما ابتغيته فى هذا الباب (١٤) .

٢- كان الحج من أهم العوامل التى دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كل ضامر إلى الرحلة والانتقال ، فالحج كان ولا يزال رحلة يتشوق إلى أدائها كافة الناس ، وليس علماؤهم أو فقهاؤهم فقط ، نتيجة ذلك اكتسبت رحلة الحج صفة تراثية شعبية ، كما أن العديد من الحكام والسلاطين قد أقاموا على الطريق الكثير من المنشآت لخدمة الحجاج ، وعهدوا إلى الجنود تأمين طريق الحج وحماية سالكيه ، كما ان الحجاج كانوا يتجمعون فى قوافل تبدأ صغيرة ثم تنمو كلما تقدم بها الطريق ، بما ينضم إليها من وفود ، حتى يصبح فى النهاية للعراق حجيجه ، وللشام حجيجه ، ولإفريقيا حجيجها ، وتسير القافلة فى ألفة ونظام وتعاطف شامل ، يحميها جنود الحكام ، ويرحب بها سكان المدن والقرى فى معظم الأحيان ، ويزداد الترحيب كلما زاد فى القافلة عدد العلماء ورجال الدين (١٥) .

٣- كانت التجارة عاملاً هاماً يقتضى القيام بالرحلة والسفر البعيد ، ومع أن تجارة المسلمين فى العصر الذهبى للدولة الإسلامية كانت قد بلغت شأناً لم تبلغه أى أمة قبل عصر الاكتشافات الجغرافية الأوروبية الحديثة ، إلا أن الاجتهاد العربى كان قد أفلح من زمن بعيد فى اختراق حاجز المسافة ناحية الشرق ، وفى انتظام الرحلة العربية الإسلامية فى المحيط الهندى (١٦) ولعل من أشهر الرحلات البحرية التجارية فى المحيط الهندى التى تمت خلال النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى هى رحلة التاجر سليمان السيرافى . ومن التجار الرحالة الذين جاءوا فى عصر لاحق نذكر مثلاً ياقوت الحموى ، الذى كانت رحلاته للتجارة أساساً ، إلا أن مؤلفه الجغرافى (معجم البلدان) قد اكتسب شهرة كبيرة (١٧) .

٤- التكليف من قبل الحكام ، إذ كانت هناك رحلات تكليفية بمهام رسمية كالتى بعثها الواثق بالله إلى حصون جبال القوقاز عام ٢٢٧هـ ، ويدخل فى باب التكليف بالرحلة الحاجة إلى المعلومات والبيانات للأغراض الاقتصادية أو الدينية أو العلمية ، مثل هذا النوع تقوم الدولة بتمويلها . غير هذا النوع من الرحلات كانت الرحلة الإسلامية بصفة عامة جهداً ذاتياً واجتهاداً شخصياً خالصاً (١٨) .

٥- التقدير البالغ للرحالة فى كافة أمصار العالم الإسلامى ، إذ أن الرحالة المسلمين قد ركزوا أسفارهم داخل نطاق العالم الإسلامى واسع الأرجاء ، والممتد من المغرب العربى والأندلس إلى أقصى الشرق والهند وحتى الصين وقد كانت الرحلة خارج هذا النطاق محدودة وغير واردة على نطاق واسع ، وقد سهل الاتصال البرى الانتقال فى ربوع البلاد شرقاً وغرباً ، علاوة على توفير الكثير من التسهيلات لإيواء المسافرين جنباً إلى جنب ، وإلى ماحظى به الرحالة أيضاً من كرم وضيافة العلماء والحكام الوافدين إليهم ، ولولا ذلك لربما تعزر على الرحالة أبن بطوطة مثلاً أن يقطع آلاف الأميال متنقلاً فى ربوع البلاد مقيماً سنوات فى بعضها أو زائراً للبعض الآخر لمدة قصيرة .

فقطع ابن بطوطة هذه المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ، ووجد فى كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم له الطعام ، لا على سبيل التكرم والتفضل ، بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة ، وقامت على رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة : ذلك هو نظام الزوايا والمدارس والرُبط (جمع رباط) وهى دور ضيافة ينشئها رجال الطرق الصوفية أو بعض أهل الخير أو كبراء أهل الدولة من مالهم الخاص ، وقد تنشئها الجماعة نفسها ، وتتولى أمرها ورعاية النازلين بها من أموال تجمع لهذا الغرض (١٩) .

بماذا يهتم الرَّحَّالة في كتاباتهم؟

- ما يتصل بالرحلة ذاتها، من الاستعداد لها وتجهيز الخرائط وذكر صعوبة الرحلة.
- اضطر بعض هؤلاء الرحالة للعمل بالتجارة للإنفاق على تلك الرحلات، فراقبوا الاقتصاد، وتحدَّثوا عن المراكز التجارية والتبادل التجاري، وعن الصناعة والزراعة.
- اهتموا بطباع الناس وطبقاتهم وألوانهم وانتماءاتهم وصفاتهم ولغاتهم.

- ذكروا علماء تلك البلدان، وتحدثوا عن مدارسها ومساجدها، وعن الأدباء والأطباء والمشافي والعمران.
- صوَّروا الطبيعة بتضاريسها من جزر وجبال وسهول ووديان وأنهار وهضاب.

أسلوب كتابة الرحلة:

يعمد الرحّالة إلى تضمين الرحلة بعضاً من آيات القرآن الكريم والأشعار، ويرون في ذلك تأكيداً لكلامهم، كما يشيع في الرحلة الحوار، والمشهد القصصي فيها مستمر، والوصف من أدواتها الرئيسة، ومن أجل إضفاء الحيوية، وإبعاد الملل، وإثارة التشويق لدى القراء، اعتمد كتاب الرحلات على خلط الجد بالهزل، ونثر عناصر الفكاهة في كتبهم.

أدب الرحلات في التاريخ العربي والإسلامي:

عرف تاريخنا العربي والإسلامي أدب الرحلات منذ القدم، وكانت العناية به عظيمة في سائر العصور. ولعلَّ من أقدم نماذجه رحلة التاجر سليمان السيرافي بحراً في المحيط الهندي في القرن الثالث الهجري، ورحلة سلام الترجمان إلى حصون جبال القوقاز عام ٢٢٧ هـ، بتكليف من الخليفة العباسي الواثق؛ للبحث عن سدِّ يأجوج ومأجوج.

ثم تأتي رحلات كلٍّ من المسعودي مؤلف كتاب (مروج الذهب)، والمقدسي صاحب (أحسن التقاسيم ومعرفة الأقاليم)، والإدريسي الأندلسي في (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، هذا بالإضافة إلى رحلة الرحالة المؤرخ عبد اللطيف البغدادي.

وتأتي رحلة البيروني (ت ٤٤٠ هـ) المسماة (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) نموذجاً فذاً، إذ تعدّ وثيقة تاريخية مهمة تجاوزَت الدراسة الجغرافية والتاريخية إلى دراسة ثقافات مجتمعات الهند القديمة، إذ يتناولها البيروني بالتحليل ويقارن بينها وبين اللغة العربية على نحو جديد.

ثم يأتي ابن بطوطة، وهو أعظم رحالة المسلمين، وقد بدأت رحلته عام (٧٢٥ هـ) من طنجة بالمغرب إلى مكة المكرمة، وظل زهاء ٢٩ سنة يرحل من بلد إلى بلد، ثم عاد في النهاية ليملي مشاهداته وذكرياته على أديبٍ كاتب يدعى محمد بن جزي الكلبي، بتكليف من سلطان المغرب، وسمّى ابن بطوطة رحلته: (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، وروى ابن

بطوطة مشاهداته لبلدان إفريقية، وكان هو أولَ مكتشف لها، كما صور الكثير من العادات في مجتمعات الهند، بعد ثلاثة قرون من الفتح الإسلامي لها. وهذه لرحلة في عمومها صورةً شاملة دقيقة للعالم الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري، وبها إبراز لجوانب مشرقة للحضارة الإسلامية وشعوبها، بما لا نجده في المصادر التاريخية التقليدية.

**أهم الرحالة البلدانيين عند المسلمين (أصحاب مدارس أصيلة)**

يعد مؤسسى المدرسة الجغرافية الإسلامية أصيلة غير المنقولة أصوليين إذ تأسست على أيدى البلدانيين والمسالكيين والخرائطيين والموسوعيين من المسلمين ، وفيما يلى عرض لأهم هذه الأعلام فى سماء المدرسة الجغرافية الإسلامية :

* *هشام بن السائب الكلبى* : ويعد المؤرخ والنسابة ذو شهرة بين العلماء والمسالكيين ، وهو ابن محمد بن السائب الكلبى ، توفى فى ٢٠٦هـ / ٨٢١م ، وله كتاب البلدان الكبير وكتاب البلدان الصغير ، ولم يتم العثور على أى منها ، وكتبه شهيرة جداً فقد نقل عنه الكثيرون من الجغرافيين فى كتبهم (٢٠) .

* *الأصمعى :* أبو سعيد عبد الله بن قريب اللغوى الموسوعى البصرى (١٢٢-٢١٣هـ / ٧٤٠-٨٢٨م) .

* *اليعقوبى:* احمد بن أبى يعقوب بن وهب بن واضح ، الكاتب العباسى (٢٦٦هـ / ٨٧٩م صاحب كتاب البلدان) .

* *سليمان السيرافى :* كان من التجار الذين نزلوا الثغور ، ووصف سياحته فى الهند والصين فى كتاب يرجع صدوره إلى عام ٢٣٧هـ / ٨٥١م . ذيل هذا الوصف مؤلف آخر من سيراف واسمه أبو زيد حسن ، وصدر الاثنان معاً فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وقد أضاف ابو زيد ما سمعه من قصص الرحالة والتجار فى بحار الصين (٢١) .

* *البتانى :* أبو عبد الله محمد بن جابر بن سفان الحرانى ، ولد فى حران فى شمال العراق سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م وكان صابئاً فأسلم ، ويعد البتانى فلكياً رياضياً ومن مؤسسى علم حساب المثلثات ، وهو صاحب الزيج الصابى (٢٢) وقد نشره المستشرق نلينو فى ثلاثة مجلدات ، وقد كان للبتانى بسبب معلوماته الفلكية صيت بعيد فى العصور الوسطى وسموه البتاجينوس "Al-Batagenius" بعد أن ترجم زيجة أفلاطون التريفولى "Trivoli Plata de" سنة ١١٤٠م إلى اللاتينية ، وخريطته للعالم التى يوضحها الشكل رقم (٣١) تعد أول خريطة جامعة مفصلة للعالم بعد خريطة بطليموس ، وهى أصح من خريطة بطليموس ؛ لأنه اتبع فى رسمها طريقة التسطيح البسيطة "Projection Simple" وخطوط الطول والعرض فيها مستقيمة ، أما خريطة بطليموس فعملت على أساس التسطيح المخروطى "Projection Conic" وهى من أحسن نماذج الخرائط الجغرافية المتأثرة بالجغرافية اليونانية (٢٣) .

* *البلاذرى :* أحمد بن يحيى بن جابر ، (توفى فى ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) وهو مؤرخ بكتابة "أنساب الأشراف" وهو صاحب كتاب "فتوح البلدان" .

* *الجيهانى :*الوزير السامانى ، أبو عبد الله بم احمد بن نصر : عمل فى خدمة الأمير إسماعيل السامانى ، وهو أحد العلماء اللامعين الذين ظهروا وعملوا فى بلاد السامانيين مثله فى ذلك مثل البيرونى وابن سينا ، وعندما اغتيل الأمير تولى الجيهانى مهمة الحكم وصياً على الأمير

الصغير نصر بن احمد السامانى (٣٠١ - ٣٣١هـ) وتولى الجيهانى الوزارة سنة ٣٠٢هـ / ٩١٤م .

وقد ألف الجيهانى كتاب "المسالك فى معرفة الممالك" واعتمد فيه على الاصطخرى وخرائطه ، وأضاف إليه معلومات قيمة عن بلاد الهند والسند وبلاد إيران والصين وآسيا ، ونقل عنه الكثيرون من الجغرافيين ، منهم الإدريسى ، وقد لقى الجيهانى كبار الرحالة المسلمين فى آسيا من أمثال ابن فضلان ، وقد نقد المقدسى الجيهانى نقداً شديداً وقال : إنه منجم وفلكى فلم يذكر الإقليم ، أما المسعودى فأثنى عليه وكان بن حوقل يحمل معه كتاباً مع كتب الاصطخرى ويستشهد به فى فقرات كثيرة من كتابه (صورة الأرض) وقد وصلت إلينا خريطة العالم كما صورها ، وهى أول خريطة للأرض لم تتأثر بآراء اليونان ، كما فى شكل (٣٢) وإنما قامت على أساس البلدان والمسالك ، كما نسبت للجيهانى فى عدة خرائط لبعض الإقليم ، كمصر والمغرب والشام والعراق (٢٤) .

* *احمد بن فضلان :* عرف فى رحلاته الكثير عن ديار الشرق والغرب معاً وكان ملك البلغار وقد طلب من الخليفة العباسى المقتدر بالله أن يرسل إليه من يفقه فى الدين الإسلامى ويبنى له مسجداً ، فكلف الخليفة ابن فضلان بهذه المهمة ، وذلك عام ٣٠٩هـ . ومع أن ابن فضلان لم يتحدث فى رسالته عن تفاصيل مهمته ونتائجها ، إلا أنه ترك صورة واضحة للبلغار وحضارتهم وعاداتهم وتجارتهم . وأشهر مؤلفاته هى "رسالة بن فضلان فى وصف الرحالة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة" .

* *أبو حيان التوحيدى :* امتدت حياته من (٣١٠ – ٤١٤هـ) وقد دأب على الطواف فى أنحاء الأرض ، فى الحجاز وفارس والعراق والجبل ، وخاض غمار الحياة واطلع على خوافيها ، ولهذا جاء كتابه "الإمتاع والمؤانسة" موسوعة للمسائل التى تتصل بالعلم والأدب والإنسان والحيوان والسياسة والاجتماع والعادات والتقاليد . *ويعتبر أبو حيان التوحيدى سباقاً فى فن حوار الحضارات* (٢٥) . ففى عصره نظر فيه الرحالة المسلمون إلى غير المسلمين نظرة دينية كما كان ينظر أيضاً لغير المسلمين نظرة دونية ، نجد أبا حيان التوحيدى لا يفضل أمة على أمة ، وفى حديثه مع الوزير العباسى أبى عبد الله العارض ما يشير إلى ذلك – إلى نسبية كل ثقافة أو حضارة ، وضرورة النظر إليها فى سياق ظروفها البيئية والتاريخية فيقول : *إن لكل أمة فضائل ورذائل ، ولكل قوم محاسن ومساوئ ، ولكل طائفة من الناس فى صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقصير ، وهذا يقضى بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائض مفاضلة على جميع الخلق ، مفضوضة بين كلهم* (٢٦) .

* *الاصطخرى :* أبو القاسم محمد بن إبراهيم الكرخى ، وهو من أهل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، طاف ببلاد الإسلام وجمع معلومات جغرافية دقيقة وافية ، رأس مدرسة البلدانيين والمسالكيين المسلمين ، وقد ألف كتابه "المسالك والممالك" فيما بين سنتى ٣١٨ – ٣٢١هـ / ٩٣٠ – ٩٣٣م وهو أول من رسم خريطة للعالم الإسلامى على مذهب أهل الرحلة والمشاهدة الشخصية ، وكل المسالكيين المسلمين الذين جاءوا بعده تأثروا به ونقلوا من خرائطه ، حتى الإدريسى ، الذى اعتمد عليه اعتماداً أساسياً ونقل عنه دون أن يتأثر باليونانيين فى مذاهبهم الفلكية ، والربط بين خطوط الطول والعرض والمواقع والمواضع ، ويقول الاصطخرى فى مقدمته : فاتخذت لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المتوسط – الذى لا يسلك – صورة إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم من الأرض ، حتى إذا رأى كل إقليم مفصلاً علم موقعه من هذه الصورة ، ولم تتسع هذه الصورة التى جمعت سائر الإقليم لم يستحقه كل إقليم فى صورته من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث ،

فاكتفيت ببيان موقع كل إقليم ليعرف مكانه ، ثم أفردت لكل إقليم من أقاليم الإسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الإقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج إليه علمه .

وذلك يوضح لنا الطريقة العلمية التى سارت عليها مدرسة المسالكيين فى رسم خرائطها ، وقد قسم إقليم عالم الإسلام إلى ٢٠ إقليماً اختص كل واحد منها بخريطة ، وقد ابتدأ بجزيرة العرب ، وجعلها إقليماً قائماً بذاته ، لأن فيها الكعبة ومكة أم القرى ، وهى واسطة هذه الأقاليم ، ثم أتبع ديار العرب بحر فارس ، والاصطخرى هنا مجدد لأنه جعل جزيرة العرب أول أقاليم الأرض وواسطتها ، فى حين أن المتأثرين باليونان جعلوا فارس أول بلاد إيرانشهر أول الأقاليم ، وقد تبع كل المسالكيين المسلمين الاصطخرى فى مذهبه هذا (٢٧) .

* *البلخى :* أبو زيد بن سهل ، ويعتبر المؤسس الحقيقى لمدرسة المسالكيين المسلمين ، وقد توفى سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤م ، وهو معاصر للاصطخرى ، واشتغل كل حياته بالرحلات الجغرافية ، ووضع كتاباً يسمى "صور الأقاليم" ويسمى أيضاً "تقويم البلدان" ويظن أن هذا الكتاب أو ما ألف العرب فى الجغرافيا الوصفية المسالكية – ورسم خرائط الإقاليم الإسلامية – بالألوان على قدر ما تيسر له ، وجدت قطع كبيرة من نصوصه وخرائطه فى مؤلفات الاصطخرى وابن حوقل ، والترجمات الفارسية لنص البلخى ، وقد قيل إن كتاب الاصطخرى وخرائطه نقل عن كتاب البلخى ، حتى نشأت مشكلة سماها "كونراد ميللر" وغيره من الباحثين فى علم الجغرافية العربية "مشكلة البلخى والاصطخرى **Die Balkhi – Istakhri Frage"** (٢٨) .

* *ابن حوقل :* أبو القاسم محمد النصيبى ، وهو ثالث المسالكيين العرب المسلمين الكبار بعد البلخى والاصطخرى ، وهو رحالة جغرافى اعتمد فى كتابه جغرافيته ورسم خرائطها على رحلاته ومشاهداته وكتابات ابن خردا ذبة والاصطخرى ، ويقال إنه ولد فى بغداد أو الموصل ، ولهذا يلقب بالموصلى ، بدأ رحلاته الطويلة فى رمضان سنة ٣٣١هـ / مايو ٩٤٣م بادئاً بالمغرب ، له كتاب "صورة الأرض" مزود بالخرائط . وتقدم خريطة ابن حوقل مثالاً واضحاً وإنما جيداً لأعمال الجغرافيين المسلمين الكارتوجرافية ، فبالرغم من أنها خريطة توضيحية للعالم المعروف آنذاك إلا أنها تقدم فكرة جيدة عن توزيع القارات كما عرفها العرب المسلمون .

يُعدُّ أدب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية؛ لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهد الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءته مفيدة وممتعة ومسلية.